

أساليب التفكير :

التفكير في الشرق القديم

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

—————

وبعد فذاك لون خيالي من التفكير ؛ بيد أنه يستر وراءه نزعة فلسفية ناشئة تنال الخرافة ؛ ونسب إلى إيجاد حل مقبول لمشكلة الخير والشر في العالم : هل هما من مصدر واحد ؟ لا — فذلك ما لا يقبله عقل زرادشت الحكيم ؛ إذ كيف يتسنى أن يصدر النقيضان عن مبدأ واحد ؟ لا بد إذن أن مظاهر الشرور من أمراض وجرائم وموت وقبح وشقاء ترجع إلى علة غير الملة التي ترجع إليها مظاهر الخير من طافية وإحسان وفضيلة وحياة وجمال وسعادة . ولكن العقل قاصر كما قلنا ، فهو يفرض وجود الملة ويصجز عن معرفة كنهها ، حينئذ يلوذ بالخيال يلتمس عنده ما لم يجد في رحاب العقل ، فيخرج بصورة رائقة ترضى نزوعه إلى المعرفة إلى حين : تلك هي صورة الصراع المحتدم بين حزين على رأس أحدهما « أورموزدا » وعلى رأس الآخر « أهريمان » .

ولكن هذه النتيجة لا تشبع العقل ، ولا تشفى غليله الأخير أم للشر ؟ وهل يمتد التصرف لحزب الحق أم لحزب الباطل ؟ لأجاب زرادشت على هذا السؤال مستنداً إلى الاستدلال البري . من المولى والرغبة ، ودعم إجابته بالدليل المنطقي والبرهان ، قلنا إنه أنتج فلسفة وفكر تفكيراً فلسفياً ، ولكنه يحكم طوره المبكر في عالم التفكير ، يستجيب لنزعة التفاضل المتكئة من نفسه ، فيطلب الخير ، لا اضرورة منطقية ، ولا لينين عقلي ، ولكن لإيمان قلمي ، ورغبة نفسية ، بمحمان عليه أن ينتصر الخير ويم الجلال وتسود السعادة في نهاية الأمر . وهكذا نلس لدى الفرس ما لمستاء في تفكير المصريين . دوافع نفسية تحرك الخيال فيصوغ الآراء صياغة حسية ، ويصور العالم صورة خيالية ذاتية لا صورة واقعية موضوعية .

وتقرب من هذه المحاولة الفارسية محاولة هندية يمثلها البراهمة

وهم الكهنة الحفاظ على الديانة القادبة ^(١) التي ترجع إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، والتي توزع قوى الطبيعة على آلهة عدة لكل منها دوره في تدبيرها . كان البراهمة كهنة لهذه الديانة جمعوا بين العلم والدين ، وليس هذا بجيب إذا قلنا أن القادبة مشتقة من قيداس ^(٢) أي السلم ، وقد تطورت الديانة القادبة بفضلهم تطوراً انتشاء تبدل الأحوال ، وارتقاء التفكير ؛ فخرج المذهب البرهمي في القرن التاسع قبل الميلاد بفكرة فريدة في هذه العصور الخالية التي تسود فيها الوثنية أو تعدد الآلهة ، هي فكرة الإله الواحد رغم تعدد مظاهره . براهما الذي أخرج العالم من ذاته ، والذي يحفظه ويرعاه ، والذي يهلكه ويضيه . فهو ثلاثة في واحد ، أو هو واحد ذو مظاهر ثلاثة ، هو براهما من حيث هو مبدأ الوجود ، وهو « قشنو » إذا نظرنا إليه من حيث عنايته بالكون والحفاظة عليه ، وهو « سيفا » من حيث كونه المهلك . وما براهما وقشنو وسيفا غير أسماء ثلاثة لإرادة واحدة لاحد لها ، وقدره فريدة لانهاية لها . أما الموجودات أو الجزئيات التي ندركها بمحاسنا ، فهي مجرد مظاهر حسية مفكرة لحقيقة كلية واحدة هي « براهما » التي في أرجاء الكون جميعاً . وهكذا يبلغ البراهمة نظرية فلسفية سوف تصادفنا كثيراً في سياق الحديث عند تاريخ الفلسفة ؛ تلك هي نظرية الحلول ؛ تصادفها عند متصوفة الإسلام في القرون الوسطى وسبينوزا في العصور الحديثة . وقد ارتكزوا على هذه النظرية في تفسير الخير والشر والسعادة والشقاء ؛ فأرجعوا الخير والسعادة واللذة إلى الوحدة ، واعتبروا الكثرة الوهمية والرغبة في الانفصال من الإرادة الكلية علة الألم والشر والشقاء في الحياة الدنيا ؛ وعليه يصبح بلوغ السعادة عملاً يسيراً ، فإليك إلا أن تستجيب لتناء الوحدة والحقيقة ، فتجرد من لقات البدن ، وتجرد من أوهام الحواس التي تفصلك عن الكلى اللانهاى ، وتقطعك عن الأصل الإلهي ؛ ولا يتأتى ذلك إلا بمجاهدات نفسية ، ورياضات جسدية حنيقة ، تأخذ نفسك بها كما يقبل اليوم فقراء الهندوس الذين يتصلون بسبب قريب بهذه الفلسفة القديمة البدائية . وهنا نلح كيف أدت النظرة الهندية للعالم إلى نظرية عملية ، تستهدف تدبير حياة الفرد

السلام والمسالمة ؛ وجعلها آراء تستهدف نفس الناية التي أنتجت فلسفته : وإفناء الشخصية الفردية ، وتغليب الطبيعة العقلية على الطبيعة الحسية ، وإخضاع الإرادة الجزئية للإرادة السكاكية .

وآخر مثال أزججه من التفكير الصيني . ومن أحق بالذكر من بين قادة الفكر الصيني القديم من « كونفوشيوس » ، الذي عاش في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد . أفكاره عملية أي أخلاقية سياسية . في الأخلاق يؤكد فكرة الواجب وضرورة صدورها من العقل ، وضرورة تشكيل النفس وبلغ على أن الفضيلة اعتدال أي وسط بين الإفراط والتفريط ، وينهى عن التطلع إلى المستقبل فهوهم وألم . وأما فلسفته السياسية ، فتركز على مناهة للحرب وإيمان بالسلام والدالية . ويعتبر مقلاً قديماً من أشعة الدعوات إلى السلام والإيمان بضرورة جعل العالم أسرة واحدة متحابّة متعاونة متكاملة ، فليتأمل أقطاب هيئة الأمم المتحدة هل أتوا بجديد ؟ ولينظر مفكرو الغرب كيف سام الشرق القديم في دعم السلام العالي والأمن الجماعي بفكره ولما يزل في دور الطفولة .

بعد هذا المرض السريع لتراث فكري دفع العقل إلى الأمام بما يقدم من غذاء لمصور تالية ، نقف هنيئة لتساؤل : أليس من الخطأ أن نقول إن الفكر الشرق القديم خرافي كله ؟ ونجيب عن أنفسنا : إن الخرافة كانت تسود في هذه العصور ، ولكن الفلاسفة كانت تطل برأسها بين التينة والفيتة ، وترسل بارقة مضبوطة بين الحيف والحين ؛ حتى نرى الفكر الهندي والصيني يضرب بسهم في عالم الفلسفة ، فقد حاول الهنود والصينيون تفسير بعض جوانب الكون تفسيرات عقلية ، كان يمكن أن تصير فلسفة لولا تقييد بعض أغلال التعاليد ، وهروع أحياناً إلى الخيال ، وتناثر في الآراء ، وإعواز إلى مذهب يلم هتات هذه الأفكار البثرة والنظرات المتفرقة ، وانتمار على الفلاسفة العملية سياسية كانت أو أخلاقية . ولو قد تجرد هؤلاء القدماء من النزعة الدينية الساذجة وأخذوا أنفسهم ببعض التأليف بين النظرات البثرة لأمكن أن يخرج انجاء ميثافيزيقى هام كما حدث عند اليونان إبان عصر الفلسفة .

عبد النعم المصطفى

(حلوان)

مدرس الفلسفة بحلوان الثانوية

والجامعة بما يكفل لهم سعادة أبدية . وهذه اممرى ميزة تسم الفكر الشرق القديم : أعنى بها عدم الوقوف عند تفسير العالم الطبيعي وبحاوزه ذلك إلى مباحث أخلاقية في الخير والشر ، والسعادة والشقاء ، واللذة والألم ، مباحث أفضت إلى حكمة عملية ، وتعمد بالحكمة العملية ذلك الجانب من الفلسفة الذي يتناول بالبحث مبادئ الأخلاق والسياسة .

وما دنا قد ذكرنا الحكمة العملية فلا بد أن نشير إلى زاهد قبيلة سكا التتوي سنة ٤٧٧ قبل الميلاد (١) « بودا » الحكيم الذي جمع من الأنبياء ، وخلف من الأنصار ، ما لم يتيسر لكثيرين من قادة الفكر ودمية الدين في كثير من العصور . لا بد أن نشير إلى بودا فهو خير ممثل للحكمة العملية في الشرق القديم ، وأقدر مفكرى عصره على التحرر من الخرافة ، وأقربهم إلى للزعة الفلسفية التي لا تبالي بالموروث ، ولا تنى عن السعي إلى الحقيقة الخالصة ، حتى لنجد لديه بذور مذهب فلسفى شاع في العصور الحديثة ، مذهب ينكر وجود جوهر اسمه العقل أو الذات وإنما الموجود ظواهر نفسية ، ووقائع شمورية ، وأفكار تتابع وتتلاحق دون حاجة إلى جوهر يحمل هذه الأمور جميعاً ، فنحن نفكر ونقل وننتخيل وبدرك ونشعر ، وتتتابع الأفكار والمفاني والأخيلة والمدركات وللشاعر ، فليس ما يدعوننا إلى القول بنفس أو عقل أو ذات تحمل هذه الأمور .

ذلك مبحث في صميم الفلسفة بعد وثبة فكرية رائدة ، ويضع لبنة من لبنات الميثافيزيقا . وقد استنتج بودا من هذه النظرية نظرية في الميثافيزيقا هي إنكار « براهما » أي أصل الوجود عند المبراهمة ، استنتاجها استنتاجاً منطقياً من رأيه في الذات الفردية ؛ ولكنه رغم ذلك لا يزال يتصل اتصالاً وثيقاً بالفكر الخرافي الذي يتأثر بالدوافع النفسية ، ويستلهم الخيال في كثير من الأحيان ، ناهيك بالجانب الأخلاق في فلسفته الذي يحمل الزهد فضيلة الفضائل ، وفناء الشخصية (النيرفانا) غاية النيات . ولن أترك الحديث من اللهم الحكيم ، قبل أن أشير إلى آرائه في الفلسفة السياسية ، من استنكار لنظام الطبقات ، وإعلان المساواة التامة ، وإقرار بفكرة التعاطف بين البشر ، وسبباً

(١) أشهر « ديموس » في تاريخ الفلسفة ، تأليف الدكتور إبراهيم مذكور والأستاذ يوسف مكرم